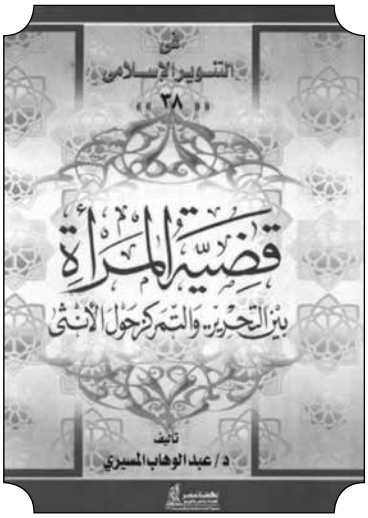

قضيَّة المرأة بين التَّحرير والتَّمركُز حَوْلَ الأُنثى

الكاتب: عبد الوهاب المسيريّ.
النّاشر: شركة نهضة مصر للطّباعة والنّشر والتّوزيع.
الصّفحات: 57 صفحة.
سنة النّشر: 2010م.

مراجعة: ميرفت إبراهيم *

عن الكتاب

تُمثِّل قضيَّة المرأة أكثرَ القضايا جدلًا في عصرنا الحاليّ؛ فبين مُطالِبٍ بحقوقها، لدَفْعِ الظُّلم والتَّفاوت الاجتماعيّ بينها وبين الرّجل، ومعاملتها على أساسِ الإنسانيَّة المشتَرَكة بينهما، وبين مُطالِبٍ بمساواتها المُطلَقة مع الرّجل، لتذوب الفروقات كافّة بحيث تختفي معايير الحكم التي تُميِّزه عنها، بَرَزَتْ حركَتَا تحرير المرأة و«الفيمينيزم» (النَّسويَّة) (Feminism). للوهلة الأولى، يمكن عدُّ الحركة الثّانية مرادفة للحركة الأولى وامتدادًا لها، ولكن هل هي حقًّا كذلك أم أنَّ ثَمَّة اختلافًا

* طالبة دكتوراه في العلوم الدّينيّة، تخصّص علاقات إسلاميّة مسيحيّة في جامعة القدّيس يوسف.

جوهريًّا بينهما؟ وما هو أثر كلّ مِنَ الحركتَين على النّظام العالميّ الجديد؟ وبأيِّ صبغة تصبغانه؟

يشكّل كتاب «قضيّة المرأة: بين التّحرير والتّمركُز حَوْلَ الأُنثى» محاولة موضوعيَّة للإجابة عن هذه الأسئلة؛ إذ يُسلِّط الكاتب فيه الضّوء على تلك الحركتَيْن: حركة تحرير المرأة وحركة «الفيمينيزم»، موضِّحًا الاختلافات الجوهريَّة بينهما، في سبيل تقديم رؤية واضحة لخطورة حركة «الفيمينيزم» أو حركة التَّمركُز حَوْلَ الأُنثى، كما أسماها الكاتب، مُقدِّمًا بعض البدائل التي مِنْ شأنِها أنْ ترسم خارطة طريق لطرح قضيَّة المرأة بما يُحقِّق لها تحصيل حقوقها ومطالبها ضمن أُطُر الأُسرَة ومركزيّتها.

قضيّة المرأة: بين التَّحرير والتَّمركُز حَوْلَ الأُنثى

يُعالِج الكتاب مقولة: المرأة بين حركتَيّ التَّحرير والتَّمركُز حَوْلَ الأُنثى، في ثمانية عناوين وخاتمة، على التّفصيل الآتي:

بين الإنسان والإنسان الطَّبيعيّ

يوضّح الكاتب ضمن هذا العنوان منهجيَّة المسار الذي تتَّبعه حركات التَّحرُّر في إطارِ منظومةِ التَّحديث والعلمنة الغربيَّة. فيُميِّز بدايةً، بين الحركات التَّحرُّريَّة في الغرب، في عصر ما بعد الحداثة بشكلٍ عامّ، والحركات التَّحرُّريَّة القديمة التي تصدر عن الرُّؤية الإنسانيَّة المُتمركِزَة حولَ الإنسان، مُركِّزًا على مَواطِنِ الاختلاف الجوهريَّة بين الإنسان والطَّبيعة. فالإنسان يحوي في داخله مِنَ التَّركيب ما يُمكِّنه من تجاوز الطَّبيعة (المادَّة)، ويوضّح الكاتب أنَّ مقدرة الإنسان على التّجاوزِ هي السَّبب في إعطائِهِ مركزيَّتِهِ في هذا الكَوْن.

يُبيِّن الكاتب كيف أنَّ منظومة التَّحديث والعَلْمَنة الغربيَّة تَدُورُ في إطارِ «الحلوليَّة الكمّونيَّة المادِّيَّة». ومفادها أنَّ المبدأ الواحد المُنَظِّم للكَوْن حالٌّ فيه، غير متجاوزٍ له، وذلك ضمن نمط يبدأ بالواحديَّة الهيومانيَّة (عالَم مركزه الإنسانيَّة جمعاء)؛ أي إنَّ الإنسان سَيِّد الكَوْن ومركزه، فتكون ذاته مرجعيَّته ومعياريَّته، ما يجعله مُسَيْطرًا على الطَّبيعة، مُسخَّرة له. ثُمّ الواحديّة الإمبرياليَّة (عالم مركزه الذَّات الفرديَّة)، والتي بفعلها يكون الإنسان فردًا منغلقًا على ذاته، ليس بكونه ذاتًا إنسانيَّة؛ بل

بصفته ذاتًا فرديّة تكون موضعَ الحلول، فيؤلِّه نفسه في مواجهة الطّبيعة والآخرين. بعدها الثّنائيَّة الصَّلبة (صراع بين الإنسان والطّبيعة)؛ إذ يُدرك الإنسان مرجعيَّة الطّبيعة لذاتها واكتفائها بنفسها، فتظهر ازدواجيَّة صَلبة متصارعة. بعدها الواحديَّة الصَّلبة (عالم مركزه الطّبيعة)، وتكون نتيجة لحلول الطّبيعة محلّ الواحديَّة الإنسانيَّة؛ وتصبح فيها مرجعيّة الإنسان لمعياريّته، فيظهر الإنسان الطّبيعيّ، ويجري الانتقال مِنْ عالَم يَتَّسم بالثّنائيَّة إلى عالَم واحديٍّ مركزه الطّبيعة، وحسب. ويختم هذا النَّمط بالواحديَّة السَّائلة (عالَم بلاً مركز سقط في قبضة الصَّيرورة)، والتي تتصاعد فيها مُعدَّلات الحلول والتَّفكيك؛ ليصبح التَّغيُّر هو نقطة الثَّبات الوحيدة، وتُسيطر النِّسبيَّة، فيتحقَّق عالَم مُفكَّك لا مركز له. وهذا العالَم يَتَّسِم بالحركة الدَّائمة، وتتحقَّق فيه مرحلة السُّيولة الشَّاملة.

المساواة والنَّسويَّة

يوضّح الكاتب في هذا العنوان خلفيَّات حركات التَّحرُّر الجديدة، كما أسماها، وكيفيّة تأكيدها بشكلٍ متطرِّف على فكرة الصّراع، مُركِّزةً على مساواة الإنسان بالكائنات الطّبيعيَّة، في سبيل تغييب الإنسان وتفكيكه وتقويضه وتذويبه؛ إمَّا في عالم مركزه الطَّبيعة أو في عالم لا مركز له.

يتأتّى العالَم الذي لا مركز له عن تَعدُّد المراكز. فبهذا التَّعدُّد يتهاوى كلّ شيءٍ ثابت، ولا يكون ثَمَّة معيار لتحديد الأمور، ويدخل العالَمُ في وحدة شاملة سيَّالة؛ كلّ شيء فيها مُباح لغياب المعايير التي قد يُحكم وفاقًا لها. ويبدأ البحث عن أشكال جديدة للعلاقات بين البشر، وتصبح الأُطُر مفتوحة على الاحتمالات كافَّة، ويُتحرَّر مِنْ مفاهيم الإنسانيَّة المشتركة، ومن عبء المخزون المعرفيّ والقيميّ التّاريخيّ، فتَرفع جماعات التَّحرُّر الجديدة راية الدِّفاع عن الفقراء والسّود والشّواذّ جنسيًّا والأشجار والحيوانات والأطفال والعراة والمخدّرات والانتحار...

بهذا، يتوضَّح الهدف مِنَ الدِّفاع الشَّرِس عن الشّذوذ الجنسيّ، بكونه تمييعًا للطّبيعة الإنسانيَّة الاجتماعيَّة، وإلغاء دور الإنسانيّة المشتركة بعد أن كانت مرجعيَّة نهائيَّة، ومعيارًا ثابتًا لإصدار أحكام إنسانيَّة، ولتحديد ما هو إنسانيّ ممّا هو غير إنسانيّ. ويتحوَّل الشّذوذ، تاليًا، إلى أيدولوجيا تهدف إلى إلغاء ثنائيَّة أساسيَّة، هي ثنائيَّة الذَّكَر والأُنثى التي يستند إليها العمران الإنسانيّ والمعياريَّة الإنسانيَّة.

كما يتوضَّح أنَّ الحديث المتواتر والمتوتّر عن «حقوق الإنسان»، والذي تقوده وتُموِّله وتدعمه الولايات المتّحدة، والمفهوم الجديد للأقلِّيَّات ـ الذي يُروِّج له النّظام العالميّ الجديد وهيئة الأُمم المتّحدة وبعض الجماعات التي تدور في فُلكها ودعاة نظريَّة الحقوق الجديدة ـ، ليس في جوهره إلَّا هجومًا على مفهوم الإنسانيَّة المشتركة، فيُعامل الإنسان معاملة وحدة مستقلَّة؛ غير مرتبطة بأُسرَة أو بمجتمع أو بدولة أو بمرجعيَّة تاريخيَّة أو أخلاقيَّة. وعلى هذا المنوال، يصبح الكلّ أقلِّيَّة، وتختفي الأغلبيَّة، وتنتفي المعياريَّة الإنسانيَّة والثَّوابت، وتسود النِّسبيَّة والفوضى المعرفيَّة والأخلاقيَّة.

السّياق الحضاريّ والمعرفيّ لحركتيّ تحرير المرأة والتَّمركُز حَوْلَ الأُنثى

يوضّح الكاتب في هذا العنوان الفرق بين حركتيّ تحرير المرأة والتَّمركُز حَوْلَ الأُنثى، ويُبيِّن أنَّهما ليستا مترادفتَين، لما بينهما من اختلافات مدلوليَّة جوهريَّة، يذكرها بشكل مفصَّل في السّياق.

يذكر الكاتب أنَّه حين تقوم حركة تحرير المرأة على محوريَّةِ الإنسان في الكونِ ومركزيَّته، وعلى فكرة الإنسانيّة المشتركة التي تشمل كلّ الأجناس والألوان، فتشمل الرّجال والنّساء بفكرة الإنسان الاجتماعيّ الذي يستمدّ إنسانيَّته من انتمائه الحضاريّ والاجتماعيّ، والتَّحرُّك تاليًا في إطار من المفاهيم المشتركة التي صاحبت الإنسان عبر تاريخه الإنسانيّ، مثل مفهوم الأسرة بصفتها أهمّ المؤسّسات الإنسانيّة التي في كنفها يحتمي الإنسان، ويُحقِّق جوهره الإنسانيّ؛ يَتبيَّن أنَّ المحور الأساس في حركة التَّمركُز حَوْلَ الأُنثى هو إزاحة الإنسان من مركز الكون، وهيمنة الطّبيعة عليه؛ ليصبح كلّ من الذكر والأنثى متمركزين حول ذاتيهما، لتحلّ واحديّة مادِّيّة سائلة لا تعرف فارقًا بين ذكر وأنثى، فيذوب الجميع في كيان سديميّ واحد لا معالِم له ولا قسمات.

يضيف الكاتب، أيضًا، أنَّ حركة التَّمركُز حَوْلَ الأُنثى تسعى إلى إزاحة الإنسان من مركز الكون، وفرض سيطرة الطّبيعة (المادَّة) عليه، ضمن مرحلتَين: مرحلة واحديّة إمبرياليّة وثنائيّة وواحديّة صلبة، يكون فيها الذّكور متمركزين حول ذكوريّتهم والإناث حول أنوثتهنَّ؛ ومرحلة واحديّة مادِّيّة سائلة لا تعرف فارقًا بين ذكر أو أنثى.

الواحديّة الإمبرياليّة، والثّنائيّة والواحديّة الصّلبة، والتّمركُز حَوْلَ الأُنثى

بعـد أن أَسَّـس الكاتـب لمرحلتَـيّ حركـة التَّمركُـز حَـوْلَ الأُنثـى، وهمـا الواحديّـة الإمبرياليّـة والثّنائيّـة والواحديّـة الصّلبـة، والواحديّـة المادِّيّـة السّـائلة، يفـرد هـذا العنـوان للتّحـدُّث عـن المرحلـة الأولى؛ فيوضّـح كيـف تكـون المـرأة في هـذه المرحلـة متمركـزة حـول ذاتهـا، في صـراع كونيّ أزليّ مع الرّجـل الـذي بـدوره يكـون متمركـزًا حـول ذاتـه؛ مـا يفضـي إلى نفي المرجعيّة الإنسـانيّة المشـتركة التي تجمعهمـا، فتُعاد صياغـة تعريف جديـد مخالـف في الجوهـر لمقولـة المـرأة ويناقـض التّعريـف المتـوارَث عبـر التّاريـخ الإنسـانيّ، مـا يجعـل دور المـرأة في الأمومـة وتأسـيس الأُسـرَة عبئًـا لا يُطـاق.

وبذلـك؛ يصبـح تاريـخ الحضـارة البشـريّة تاريـخ صـراع بيـن الرّجـل والمـرأة، ومحاولـة دائمـة لهيمنـة الذَّكـر على الأنثى، في مقابـل سـعيها الدّائـم للتّمـرّد على هـذه الهيمنـة. وعليـه، تذهـب بعـض النّظريّـات التّاريخيّـة الأيدولوجيّـة المتمركـزة حـول الأنثـى إلـى أنّ هيمنـة الذَّكـر على الأنثى تمَّـت على أثـر معركـة، أو مجموعـة مـن المعـارك، حدثـت في عصـور موغلـة في القـدم؛ لذلـك يـرى دعـاة هـذه الحركـة ضـرورة وضـع نهايـة لهـذا التّاريـخ وتفكيـك العالـم الذّكـوريّ الـذي صنعـه؛ فتذهـب هـذه الحركـة ـ في ظِـلِّ عمليـة التّفكيـك هـذه ـ إلـى الإفـراط في التّفريـق الكامـل بيـن الرّجـل والمـرأة، بمـا ينعكـس حتّى على اللّغـة، لترفـض حتّى أن تدعـى الـذّات الإلهيّـة بصيغـة المذكّـر، وتدعـو إلى الإشـارة للـذّات الإلهيّـة بصيغتَـيّ الذّكـر والأنثى. يتوضّـح مـن مسـار هـذه الحركـة الغايـة الكامنـة فيهـا في هـذا السّـياق، فهي تظهـر إلى العلـن على أنّهـا حركـة إصلاحيّـة تريـد تعزيـز مكانـة المـرأة وتحقيـق ذاتهـا، ولكنّهـا في جوهرهـا لا تعـدو عـن كونهـا هجومًـا على اللّغـة البشـريّة وحدودهـا، وعمـلًا على تشـويهها.

بعدهـا، يشـير الكاتـب أنَّـه، بمعاملـة المـرأة على أنّهـا أقليّـة كمـا الـكلّ، تتوضّـح رؤية الواحديّـة والثّنائيّـة الصّراعيّـة الصّلبـة، فتـذوب الأغلبيّـة في وحول التّسـوية بيـن الجميع، ويتعـذَّر حينهـا إصـدار الأحـكام في ظِـلِّ غيـاب معيـار الحكـم، فتصبـح المـرأة مسـتقلّة فـي وجودهـا وحيثيّاتـه عـن الرجـل، وتدخـل فـي مـدار الواحديّـة الأنثويّـة الصّلبـة، والتّمركـز غيـر الإنسـانيّ حـول الـذّات الأنثويّـة.

الواحديّة السّائلة وذوبان الأنثى

في هذا العنوان، يستعرض الكاتب المرحلة الثّانية من مرحلتَيّ رؤية حركة التَّمركُز حَوْلَ الأُنثى، والتي تتساوى فيها المرأة مع الرّجل في كلِّ شيء، وتصبح فيها مادِّيّتهما هي ما يجمعهما، لا إنسانيّتهما، ويُختزلان إلى مستوى طبيعيّ مادِّيّ واحد، لا يكترث بذكورة الذّكر أو أنوثة الأنثى، أو يساوي بينهما. ففي هذا المستوى، لا يُكترَث بالخصوصيّة أو الثّنائيّة، وذلك بحسب ما يقتضيه العالم المتعدِّد المراكز الذي لا يُكترث فيه لأيّ فروق ظاهرة أو باطنة؛ فهو عالم سائل لا مركز له، لا يمكن في ظِلِّه إصدار أيّ حكم على أيِّ شيء. ويستدعي كلّ ذلك ظهور الجنس الواحد، أو الجنس الوسط بين الجنسَين. ومن الصّعب، بحسب الكاتب، تحديد إذا كان الأمر سيقف عند هذا الحدّ، أم ينظر البشريّة المزيد.

حركة التَّمركُز حَوْلَ الأُنثى والنّظام العالمي الجديد

في ظِلِّ ما سبق ذكره، يشير الكاتب في هذا العنوان إلى مظهر العالم الجديد الذي سوف يتأتَّى من طغيان حركة التَّمركُز حَوْلَ الأُنثى، وذلك بالمقارنة بين ما كانت عليه وما تُمثِّله حركة تحرير المرأة، وما هي عليه وما ستستجلبه حركة التَّمركُز حَوْلَ الأُنثى في رسم معالم النّظام العالميّ الجديد.

ففي حين تدرك حركة تحرير المرأة الحقيقة البديهيّة الإنسانيّة البسيطة والاختلافات بين الرّجل والمرأة، وتجهد للحيلولة دون تحوُّل هذه الفروقات إلى ظلم وتفاوت اجتماعيّ يوسّع الهوَّة بين الذّكور والإناث؛ تُركِّز حركة التَّمركُز حَوْلَ الأُنثى إمَّا على توسيع الهوّة، أو على التّسوية المطلقة بينهما، وتؤكّد على استحالة التقائهما، منكرة فكرة العدل. ومن ثمّ تستبيح للذّكور أن يكونوا آباء وأُمَّهات في الوقت نفسه، وللإناث كذلك، في ما تكون الهندسة الوراثيّة خير مساعد في هذا الأمر.

تتبنَّى حركة تحرير المرأة وجود إنسانيّة مشتركة بين كلّ البشر، تُشكِّل المحور الأساس الذي تُحاور على أساسه لتحقيق مساواة عادلة بين الرّجل والمرأة، في ما تُنكر حركة التَّمركُز حَوْلَ الأُنثى هذا الأصل المشترك، فلا تترك مجالًا للتّنوُّع، ولوجود الإنسانيّة كما نعرفها. وبهذا، يتوضَّح برنامجها الذي يهدف إلى تغيير الطّبيعة البشريّة ومسار التّاريخ والرّموز واللّغات.

حركة التَّمركُز حَوْلَ الأُنثى والصّهيونيَّة

يُشير الكاتب ضمن هذا العنوان إلى أوجه الشّبه والتّقارب بين حركة التَّمركُز حَوْلَ الأُنثى والصّهيونيّة التي تنكر الإنسانيّة المشتركة، وتتقوقع على ذاتها معادية كلّ مغاير لها. فهذا التّفرّد الذي ينتهجه اليهود وفكرة عداء الأغيار، لا تختلفان كثيرًا عن اتّجاه حركة التَّمركُز حَوْلَ الأُنثى نحو إعلان الحرب على الرّجال. هذا من جهة، ومن جهة أخرى لا تختلف كثيرًا المحاولة النّشطة التي تُبذل لدمج اليهود في عالم الأغيار والذّوبان فيه، عن محاولة الأنثى الذّوبان في الرّجل.

وتلتقي كلتا الحركتين عند الدّعم الغربيّ الذي يقدَّم لهما، فكما نجد المؤازرة الغربيّة للصّهيونيّة نجدها حاضرة لحركة التَّمركُز حَوْلَ الأُنثى. فبعد أنْ فشلت المحاولات العسكريّة المباشرة مع العالم الثّالث، كان التّفكيك هو البديل والحلّ العمليّ الوحيد، وما شكّل سدًّا منيعًا أمام تلك المحاولات هو تماسك المجتمعات، في ظِلِّ بناء أُسريّ قويّ يحمل منظومة قيميَّة، وخصوصيّات قوميَّة تستشري في أبناء المجتمع، جعلتهم محتفظين بذاكرتهم التّاريخيّة ومتمسِّكين بها، وبوعيهم وبهُويَّتهم الثقافيّة، مُشكّلين وحدة صلبة يصعب اختراقها.

البحث عن البديل

تحت هذا العنوان، يضع الكاتب بين يديّ القارئ بعض البدائل التي يعدّها طروحات أوَّليَّة في هذا السِّياق، فيطرح فكرة دراسة قضيَّة المرأة في إطارها التّاريخيّ والإنسانيّ، وعدم اختزالها وإفرادها في خارج إطار الأُسرَة. وبدل المطالبة بحقوق المرأة والطّفل من موقع الفرديّة، ينبغي الانطلاق من النّواة الأساسيّة التي تجمع كليهما، وهي الأُسرّة. عندها، نتحدّث عن حقوق الأُسرَة لتكون نقطة بدء، ومن ثمّ نتطرّق إلى حقوق الأفراد تحت سقفها وضمن مرجعيّتها.

يجد الكاتب أنَّه من المفيد، بدل الحديث عن تحرير المرأة لتُحقِّق ذاتها وتُشبع ميولها ورغباتها، أن تُدرس المرأة كجزء من أزمة الإنسان المعاصِر في العصر الحديث، فهي أزمة مُشترَكة للإنسان، سواءً كان ذكرًا أم أنثى، في ظلِّ نمط الاستهلاك الذي طغى على هذا العصر، والذي يَفرض على المرأة خوضَ غمار سوق العمل، ما يستدعي عمليَّة ترشيد لوظائفها في داخل البيت وخارجه؛ لتستطيع أن تقوم بالأدوار الموكَلَة إليها من دون أنْ يطغى دورٌ على آخر. فمِنَ الممكن أنْ

يُتَوصَّل، على سبيل المثال، إلى يوم عمل يُقسّم بما يتناسب مع مؤسّسة الأُسرَة، ولا يتعارض مع دورها أُمًّا وزوجة. كما يُمكن أن يتمّ بعث الاقتصاد العائليّ الذي أثبت كفاءته ومقدرته على الاستمرار والإنتاجيَّة العالية في المجتمعات الحديثة.

يقترح الكاتب أنْ يُواكبَ كُلّ ذلك دراسة جادَّة ومُعمَّقة، نقديَّة وخلّاقة لظاهرة تحرير المرأة في الغرب، ويُؤكّد على أهمِّيَّة عدم إغفال المشاريع التَّنمويَّة التي يفرضها البنك الدُّوليّ، والتي تهدف بعمقها إلى تحطيم الدّول القوميَّة، ومؤسَّسة الأُسرّة؛ كونها أكبر مُعوّقات التَّنمية والتَّقدُّم. ويشير بعدها إلى ضرورة دراسة الدَّور المُدمِّر لبعض الشَّركات العالميَّة، ويرى أنَّه مِنَ المفيد إدراك العلاقة بين حركة التَّمركُز حَوْلَ الأُنثى وظواهر جديدة في المجتمع.

خاتمة

في خاتمة كتابه، يُؤكِّد الكاتب أنَّه، وفي طرحه هذا، لا يَسْعَى إلى إنكار ما تتعرَّض له المرأة من التَّمييز ضِدَّها، والقمع لها؛ بل إنَّ كُلّ ما يطرحه هو توجيه طرح قضيَّة المرأة بتركيز الهدف على قضيّة الأُسرَة في إطار الإنسانيَّة المشتركة، وأنْ تكون الأُسرة هي الوحدة التَّحليليَّة ونقطة الانطلاق.

ويُطالِبُ الكاتب بردِّ الاعتبار لوظيفتيّ الأمومة والزَّوجيَّة، ويعدّهما مُقدَّمتين على غيرهما من الوظائف. كما ويدعو إلى الحفاظ على الاختلاف بين الجنسَين، على ألَّا يتحوَّل هذا الاختلاف إلى خِلافٍ يؤدِّي إلى الظُّلم والتَّفاوت الاجتماعيّ.